الشكـل الخارجى للموشحة

- ٩ -

التغصين والتضمين

مصطلحات الموشح تمثل اشكالية حاولنا حلها على مدى هذا الكتاب . وهى تتراوح فى مصادرهـا بين الشعر والموسيقى والزراعة كأسلوب حيـاة يتضمن الغنـاء الشعبى . ومن بين هذه المصطلحات لفظـة الغصن يراد بهـا (حسب تفسيرنا) الوحدة السطرية للبيت ، فكل سطر سواء تكون من شطر أو شطرين أو ثلاثة أشطار (وربما فى القليل أربعة أشطار) يسمى غصنا . ولاخفاء فى دلالة المصطلح قبل استخدامه فى الموشحات ، فهو يشير الى «غصن» النبات (فنن أو فرع أو عود) . فهو مصطلح ذو جذور زراعية أيضا مثله مثـل الخرجة . انـه يشير كما عرفنا هنـا الى أى واحد من سطور البيت ، لكن لم ؟ هنـاك تصور تقليـدى (غير واقعى) شاعـرى عن استواء الأغصان وتساويهـا ، ولذا ألح الشعراء على وصف المرأة بغصن (منغرس فى كثيب) ، ومن ثم فهو هنا يشير الى تساوى أسطر البيت وتشابهها ورقتها ، وأيضا الى ثباتها (لانغراسها فى الكثيب وفى جذع الشجرة) وحركتها (بالأنسام والرياح) فى آن . والثبات يشير الى ثبات الوزن فى كل سطور أبيات الموشح ، ثم ثبات القوافى داخل أشطار البيت الواحد من كل مقطوعة ، أما الحركة فتشير الى تغير القوافى من بيت الى آخر ، ثم الانتقال منها الى القفل ومن القفل اليها . ويرجع الفضل الى «احسان عباس» فى لفت نظرى الى مفهوم هذا المصطلح وان كان قد مر به مرورا سريعا وجعله مرادفا - بشكل ما - لمصطلح «التضمين والتوشيح والتسميط (١) . ونحن نتوصل للمفهوم من ابن عبد الغفور الكلاعى فى كتابه «احكام صنعة الكـلام» (٢) ، ومراجعة ما قال على نصوص الموشحات . يتحدث ابن عبد الغفور عن النثر : «وتأملت - أدام الله توفيقك - النثر ، فوجدت فيه من أنواع البديع ما فى النظم فأغفلت ذكرها فى هذا الكتاب ؛ لأن كثيرا من العلماء قد عنوا بهذا البـاب . وجعلت أبحث عن ضروب

---

(١) احسان عباس ، تاريخ الادب الاندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) ، دار الثقـافة ، بيروت (ط ٧) ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن عبد الغفور الكـلاعى ، احكام صنعة الكـلام (تحقيق : محمد رضوان الداية) ، دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .

الكلام فوجدتها على فصول وأقسام» (١) . ويريد هنا أمرين : أولهما ايقاع النثر والثانى أجناسه الأدبية . وفى حديثه عن الايقاع يأتى بفصول منها فصل يحمـل عنوان «المغصن» . وفيه يقـول : «وسمينا هذا النـوع المغصن لأنه ذو فـروع وأغصان ، وقلما يستعمله الا المحدثون من أهـل عصرنا . وهو نحو قولى : (وقد يكـون من النعم والاحسان ، مـا يصدر من الفـم واللسان) فقـابلت سجعتين بسجعتين ، كل سجعة موافقة لصاحبتها . وقد يقابل فى هذا الفصل ثلاث بثلاث كقولى أخاطب الوزير أبا بكر بن سعيد البطليوس (ويا عجبا كيف انقلبت من ذلك الجانب بيـد صفر ، ولم تحظ من الجواب بعسجد ولا صفر ، بـل انتسب برسمه أملها ، ووصف بشطر اسمه عملها) . وقـد تأتى فيه مقـابلة أربع بأربع كقولى : (ومن السلام سلام ، وان لاح جوهرا ، ومن الكلام كلام ، وان فاح عنبرا) . وقد تأتى فيه مقابلة خمس بخمس ، كقولى : (فهلا أبصر فى ميزان الترجيح نهاية مثقالها ونظر فى ميدان التنقيح غاية ارقالها) . وقد تأتى فيه مقابلة ست بست . كقـولى : (ومن أبقاه الله ...) . وقد تأتى فيه مقابلة سبع بسبع ، كقولى : وتلا من شرائع مفاخره سورا قصرت عليهـا درسى ، وجلا من بدائع مـآثره صورا أدرت اليها نفسى) .وكان بعصرنا من جعل الزيادة على هذا غرضه ، حتى مقت هذا الفصل ، ونقضه . واتفق أن جاوبه يوما والدى بجواب طبق فيه (مغصن) الخطاب ، فأخذ جوابه ، وزيف – على زعمه – صوابه ، ونقد ومحص وزاد فى اسجاعه (ونقض) . وكتب الى بذلك بعض الكتاب ، فكتبت له فى الجواب : وردنى كتابك – أبقاك الله من أخى ثقة ، وحليف مقة – تذكر أن فلانا لمـا أشرقناه بريقه ، مرق عن طريقه الى بنيات طرق قد اختطتها أفهامنا ، وسحتها أقلامنا . فنحن أهدى اليها من اليد للفم ، ومن الشيب للمم . ذكرت أنه عـدل عن مكـاتبتنا الى شعر عوره ، ونـثر خاطبناه به فزوره ، ورجمه شيطان ، ووصله بأغصان ، أخشن من حلق غصان ، وفروع كأنها عوج ضلوع تقاربها أفحش من غزل العجائز ، وتناسبها أو حش من بطون المفاوز . لا تعبـأ بذلك – أعزك الله – فانما ركب فرسا بيـدى لجامها ، وتنكب قوسا عندى سهامها . وسأذيل هنا أسجاعا ، وأقرع بها أسماعا ، ليعلم أن ما حاوله غير متعذر فى كلام من تقدمت قدمه فى ساحة البيان ، وتمكنت يده من ناصية الابداع والاحسان . وأجعل ذلك فى فصل ليس من جانبنا بالبعيد ، أردت به تمام معـانى القصيد» (٢) . ثـم يتحدث عن السجع ويعرفه «السجع مصدر

---

(١) نفسه ص ٩٥ .

(٢) نفسه ص ١٤١ – ١٤٣ .

سجع الرجل سجعا : اذا تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر . والحمام تسجع، وهى سواجع وسجع .. والذى عندى فى هذا (السجع من حيث حسنه أو قبحه) أن النثر والنظم أخوان . فكما لا يقدح فى النظم تكلف الوزن والقافية ، كذلك لا يقدح فى النثر تكلف السجع» (١) . ثم يقسم الكلام المسجوع أقساما ثلاثة منه ما يطول أوله ويقصر آخره ومنه ما يعكس ، «والقسم الثالث فهو أن يكون القسيمان (الجملتان المسجوعتان) متساويين ، ولا يحسن ذلك عندى الا فى فصل المغصن ؛ نحو قولى : يغمر صبابة بيانى بحر بلاغته الزاخر ، ويحقر ذبالة احسانى بدر فصاحته الزاهر» (٢) .

النصوص السابقة مليئة بالأخبار الهامة جدا ، وهى :

١ – أن النظم والنثر أخوان فى البديع والايقاع ، وأن الكاتب يهتم فى كتابه بالايقاع .

٢ – أن هناك نوعا من الايقاع اسمه التغصين يتكون فيه الكلام من أغصان وفروع . فاذا ما جاءت جملتان طويلتان مثل :

أ – وتلا من شرائع مفاخره سورا قصرت عليها درسى .

ب – وجلا من بدائع مآثره صورا أدرت اليها نفسى .

فكل جملة منهما غصن (وهو يصرح بهذا المصطلح فى قوله : «ورجمه شيطان. ووصله بأغصان) ، ثم ان كل كلمة من الجملة الاولى تقابل نظيرتها من الجملة الثانية تسمى (هى أو نظيرتها) فرعا .

٣ – أن الوعى بهذا الاسلوب الايقاعى وتكلف الاتيان به حتى مقت ونقض مرتبط بعصر الكاتب (عصر المرابطين) ، فهو أسلوب استحدث فى هذا العصر ، واحتفى به المحدثون من جيله .

٤ – أن الكاتب لا يتكلم فحسب عن جمل متناظرة لكنه يتكلم عن أوزان ، ونعرف ذلك من تحليل الأمثلة ، ومن قوله فى حديثه عن السجع «هذا ما نختاره من أوزان الأسجاع ، ونستحب له من قوانين الابداع» (٣) ، فها هو صراحة يتحدث عن أوزان وقوانين للابداع ، وأخيرا يلح على ربط

---

(١) نفسه ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .
(٢) نفسه ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .
(٣) نفسه ص ٢٤١ .

النثر بالشعر فى مبالغة حتى أنه يورى به كما رأينا فى آخر خطابه الى من هاجم جواب أبيه المغصن بختامه كلامه بقوله : «أردت به تمام معـانى القصيد» ، ولا يريد بالقصيد الا كلامه النثرى وقصده التمثيلى به .

٥ – أن استخدامه لمصطلح الغصن هنا ، وتلميحه لشيوع التغصين فى النثر فى عصره خاصة – مع اشارة ابن بسام فى ذخيرته لأغصان الموشحات ، اشارة تدل على استخدام المصطلح منذ أكثر من قرن من الزمان – يوحى لنا أن استخدامه فى النثر منقول من الموشحات ، فهو يقول مصرحا بذلك : « ...وسمينا هذا النوع المغصن لأنه ذو أغصان وفروع» . وهذا التصريح يتجاهل الموشحات رسميا ، ويغترف منها فعليا ، فما أظن الا أن النثر المغصن لا يزيد على أن يكون اقتباسا من الموشحات .

٦ – ما سبق يفيد أن الموشحات بدأت قريبة من النثر (حسب قول ابن بسام عن مخترع الموشحات : «يـأخذ اللفظ العامى أو العجمى ، ويسميه المـركز ويضع عليه الموشحة» ، وهذا اللفظ نثرى بمفهوم ما كما سنوضح فى خاتمة هذا الكتاب ، ثم اتجهت تدريجيا الى الشعرية بينما النثر يتابعها فى ذلك كما سنرى .

٧ – واذا صدق فرضنا بأن استخدام مصطلح «الأغصان» فى الموشحات (كما تدل كل الشواهد) سبق استخدامه فى النثر ، فان بيـان ابن عبد الغفور حوله يكشف لنا أمرين :

أ – يؤكد ما يأتى فى الفصل القادم من ارتباط الموشحة بتراث شعبى زراعى، فهو يؤكد سبب التسمية «لأنه ذو أغصان وفروع» أى لأنه يحاكى الطبيعة الزراعية فى أحد عناصرها وهو النبات والشجر .

ب – أن تطبيق مفهوم التغصين على الموشحة يثبت شبه نثر الكلاعى المغصن بأغصانها ، ويكشف من جهة أخرى سر وزن الموشحات المخالف – لا أقول لوزن الشعر العربى جملة ، وانما لمقياس الخليل العروضى ، وتفاصيل ذلك فى الفصل الأخير من الكتاب .

هذا فيما يتعلق بالتغصين والأغصان ، فمـا معنى «التضمين» وكـل الأقوال التى وردت عن المـوشح من قدماء الأنـدلسيين (ابن بسام / ابن سعيد / ابن خلدون) تلـح على ذكره باعتبـاره الخطوة الاولى الهـامة نحو نضج المـوشحة واجبارها المجتمع الرسمى على الاعتراف بها ؟ لقد ظننت طويلا أننى سأعجز عن

فهم هذا المصطلح ، الذى عجز عن تفسيره استخدام المفهوم الذى طرحته البلاغة العربية لـه ، كما عجز عن الاقنـاع تفسير ستيرن لـه ، وهو فى الجملة هـام ، ويربطه بنظام التقفية ، ويبدأ تفسير ستيرن بافتراض الشكل الاول للموشحة :

«ان أبسط الأشكال هو بوضوح ذلك الذى يأتى دون قافية داخلية : أى يتكون من بيت ذى شطرين فى السمط (يقصد القفل الاول ، والذى كانوا يسمونه : المركز) وثلاثة أبيات متماثلة القافية فى الغصن (يقصد ثلاثة أغصان متمـاثلة القافية فى البيت) أى هكذا :

غـصـن ⟵ كل غصن من شطر واحد
غـصـن ⟵ بيت
غـصـن ⟵

المركز (القفـل) ⟵ ⟵ المركز من فقرتين

ثم بافتراض حدوث أول تطور فى المركز (القفل) :

كانت الخطوة التالية أن يدخل تعديل على النظـام الأساسى للتقفية بزيـادة أجزاء السمط (القفل أو المركز) سواء فى وسطه أو نهـايته ليصير هيكل الموشح هكـذا :

غـصـن ⟵ كل غصن لا زال من شطر واحد
غـصـن ⟵ بيت
غـصـن ⟵

المركز (القفـل) ⟵ ⟵ ⟵ المركز صار من ثلاث فقرات

ثم بافترض حدوث ثانى تطور فى الموشحة :

وكانت الخطوة التالية أن تنتقل الرحابة المتاحة فى السمط (القفل أو المركز) الى الغصن ، فيصير من شطرين (١) وهكذا تبدأ أجزاء كل من الأغصان والاقفال فى التعدد حسب النظـام السابق الاشارة اليه عند حديثنا عن الأبيات والاقفـال . ويضطرب ستيرن : فهو يـرى أن زيـادة عدد فقرات المركز (القفـل) هو معنى

---

(١) الموشح الاندلسى ، راجع : ص ٣٩ - ٥١ .

التضمين أما العملية نفسهـا فى الاغصان فيمكن أن يكون التضفير ، وقد انتهى سبب حيرته بظهور النصوص محققة ، فالعمليتان معا هما مفهوم التضمين الذى تم على مرحلتين ؛ المرحلة الاولى فى المراكز (الاقفال) ، والمرحلة الثانية فى الاغصان.

كان هذا أفضل تفسير لمصطلح التضمين حتى حل لنا ابن عبد الغفور غموض مصطلح «الغصن» ، وقـد دفعنى هذا الى العودة لقراءة كتـاب ابن عبد الغفور «أحكام صنعة الكلام» بكل احكـام ، فاذا كان قد اقتبس مصطلح «الأغصان» فى النثر ، فلماذا لا يقتبس أيضا مصطلح التضمين ؟ وكانت المفاجأة السارة ؛ لقد اقتبسه بالفعل ! .

ونترك تفصيل هذا الكشف للفصل الأخير ليكون مسكة الختام . والآن نبدأ فى دراسة نشأة الموشحة باستقصاء الأمر عند رجلين أحدهما توجهت اليه من كـل المحدثين والمعاصرين المسئولية غير المباشرة لنشأة الموشحات : زرياب ، والآخر توجهت اليه أصابع اتهـام الأقدمين – مع غيره – بتحمل المسئولية المباشرة . وقد أهملنـا غير هذين – وهما شاعران من قرية واحدة اسمهـا قبرة – لعدم توفر أية معلومات مفيدة حولهما .